

علماء الريف المغربي وإسهاماتهم في الحديث الشريف

الممهد الكبير لابن الزهراء الورياغلي نموذجاً

The contributions of Moroccan Rif scientists in the Hadith
"Almamhad Al Kabir as a case study"عبد الصمد امزيان¹

أستاذ باحث، وزارة التربية والتكوين المغرب

amezian.abdessamad@gmail.com

تاريخ الوصول 2022/01/11 القبول 2022/02/18 النشر على الخط 2022/03/15

Received 11/01/2022 Accepted 18/02/2022 Published online 15/03/2022

ملخص:

لقد كان لعلماء المغرب الأقصى دور بارز في خدمة الحديث الشريف؛ تأليفًا، وتدريسًا، وكان من أشهر المناطق المغربية التي اهتمت بتراث النبي صلى الله عليه وسلم القطر الريفي منها على غرار المراكز العلمية الأخرى كفاس. من أجل ذلك كانت هذه الدراسة موجهة لبيان جهود علماء هذه المنطقة في خدمة الحديث، وقد اختارت علما من أعلامها موضوعا لها وهو ابن الزهراء الورياغلي رحمه الله وكتابه "الممهد الكبير" لبيان هذه الجهود.

كلمات المفتاحية: الحديث الشريف، الريف المغربي، ابن الزهراء، الورياغلي، علماء الريف.

Abstract

The Moroccan scientists had a crucial role in serving the Hadith, either in writing or teaching, and they were among the Moroccan regions that took great care of the Prophet Mohammed's, peace be upon him, heritage along with the scientific centers as Fes.

To show these efforts this study highlights the efforts of the scientists of this region to serve the Hadith. The paper chose one scientist as an example. The scientist is "Ibn Zahra Al waryaghli", may rest in peace, and his book "Al Mamhad Al Kabir".

Key words: Hadith Al-Sharif, Rif Al-Maghribi, Ibn Zahra, Riaghli, Rural Scholars.

تقديم:

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق، وسقى أسرار أحبائه شراباً لذيذ المذاق، وألزم قلوب الخائفين الوجَل والإشفاق، فلا يعلم الإنسان في أي الدواوين كتب ولا في أيّ الفريقين يساق، فإن سامح فبفضله، وإن عاقب فبعده، ولا اعتراض على الملك الخلاق.

وبعد:

فلقد قبض الله عز وجل علماء أجلاء لخدمة السنة المطهرة في كل البقاع والأصقاع، فدادوا عن حياضها، ونفوا عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وحفظوها من كل شائبة قد تعلق بها.

وبلاد المغرب لم تكن نائية عن هذا المقصد، إذ وجد فيها من برع في الصنعة الحديثية رواية ودراية، حتى تميز كثيره منهم بعلو كعبهم في هذا الفن، وأشير إليهم بالبنان، ومن جملة هؤلاء، من جاد بهم القطر الريفي خاصة من هذا البلد، الذي عرف بإشعاعه العلمي والثقافي والحضاري. وإنه لمن الإجحاف تجاهل ما أنجبه من خيرة العلماء والصلحاء، ممن كانت لهم بصمة عظيمة في ميادين علمية شتى ترجع بالصلاح على العباد والبلاد.

ولأجل ذلك فهذه الورقة التي أبسطها بين حضراتكم ترنو تسليط الضياء على جانب مهم من تاريخ العلوم في الريف عموماً، لاسيما العلوم المتعلقة بالحديث الشريف، من خلال الكشف عن أعلام من الريف الشرقي الذين كانت لهم اسهامات في الحديث الشريف، مدارس، وتدريسا، وتأليفاً، وسأجعل كلمتي مبنية على محورين اثنين، هما:

- الحديث الشريف في الريف المغربي، ونماذج لأعلام برعوا فيه.

- من اسهامات علماء الريف في خدمة الحديث الشريف: الممهد الكبير نموذجاً.

وهي صولة في بطون كتب التراجم والأعلام، ومحاولة لقطف مذكر فيها من ثمار دانية ترجمت لعلمائنا الأفاضل المحدثين، ونظرة فاحصة لمدى حضور هذا العلم لديهم.

الحديث الشريف في الريف المغربي، ونماذج لأعلام برعوا فيه:

منذ القدم عرف عن هذه المنطقة أنها قلعة الرباط والجهاد، كما عرف على أنها مهد لحضارة عريقة تاريخياً وحضارياً وثقافياً، بدءاً بإمارة النكور فيها إلى يومنا هذا، لكن ثلة من أهل العلم فضلاً عن عوام الناس، يظنون أن الريف تميز بمحاربة المستعمر وإجلائه من البلاد، وفي المقابل لم يبن لبننة واحدة في تشييد صرح الحضارة الإسلامية، ولا هو ساهم في علومها النقلية والعقلية، بل إن البعض نفى أن يكون في الريف المغربي قاطبة عالم! وهي - بلا شك - فرية عظيمة، يرددها البعض من غير تمحيص ولا تنقيب عن مدى صحتها، وفي الصدد يقول الدكتور توفيق الغلبزوري متأسفاً: "طالما سمعنا على ألسنة المثقفين، بله العوام، أنه لم يخلق الله في الريف عالماً، أو محدثاً، أو مفسراً، أو فقيهاً، أو أصولياً، أو أديباً... إنما الريف هو ريف الجهاد والبارود فحسب، حتى أصبحت هذه الفكرة كمرض الوسواس القهري، الذي عم وطم، وسرى وفشى، وشب عليه الصغير، وشاب عليه الكبير، عند بعض المغاربة

خاصة، وعند غيرهم عامة، وصار الأمر متوارثاً، يرثه الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد¹، وهذا التشديد في الخطاب إنما هو ناتج عن حرقة وألم، لذلك شبه الفرية بداء الوسوسة.

بل إن البعض منهم وإن أقر بوجود العلماء في هذا الصقع، بيد أنه لا يقر ببعض ما ألفوه، زعما منه، استحالة أن يوجد كتاب كذا، لا لشيء، أو لعارض معين!، فعلى سبيل الحصر هذا علامة طنجة أحمد بن الصديق الغماري رحمه الله عليه المحدث المحقق، يعلق على قوله لعبد الرحمن بن زيدان رحمه الله الذي تحدث عن شرح لموطأ الإمام مالك رحمه الله عليه، ويقع في 51 جزءاً، وهو كتاب "الممهد الكبير" لابن الزهراء الورياغلي الريفي رحمه الله، وفي ثانياً كلامه اعتبره مماثلاً لشرح "التمهيد" للحافظ ابن عبد البر رحمه الله، فيصف الغماري هذه المماثلة بالمستحيل وجوده والمنتخيل وقوعه، وأن هذا الرأي بعيد عن الجادة، وسقيم يلزمه أن يستقيم، فيقول في بعض رسائله إلى أحد تلامذته - وهو الشيخ المحدث محمد بوخبزة رحمه الله عليه التي بعثها إليه من مصر، وسفه فيها قول ابن زيدان: "أما مسألة ميمون الريفي - ويقصد الورياغلي - شارح الموطأ شرحاً يماثل التمهيد في دعوى ابن زيدان، فتلك نادرة من النوادر المستطرفة وبادرة من البوارد"² وفي الرسالة عينها يضيف نافياً وجود كتاباً مثله، ويرى استحالة أن يؤلف مثله في هذا الصقع، فيقول: "إذا كان في الدنيا مُحال متصور، وبارز للعيان، فليكن شرح ميمون الريفي الذي يُماثل التمهيد - لابن عبد البر رحمه الله عليه -"³.

ولم يقف العلامة الغماري رحمه الله عند قوله هذا فحسب، بل رأى أن من يزعم وجود "الممهد الكبير" كشرح "لموطأ" في 51 جزءاً، يلزمه أوبة وتوبة واستغفار من هذا الذنب، مع شيء من الزجر والتوبيخ، فيقول في متم رسائله إلى تلميذه: "فتلك نادرة من النوادر المستطرفة، وبادرة من البوارد التي يُعاتب عليها مُدعيها، بل يُزجر ويُؤنب، ويُؤمر بالتوبة والاستغفار من التفوه بها"⁴. فإذا كان هذا قول قامة من قامات العلم كعلامة طنجة أحمد بن الصديق الغماري رحمه الله عليه، فكيف بمن دونه؟! وعليه فإن السابح في كتب التراجم التي عنيت بالترجمة للمغاربة جملة، سيقف على نخبة من أهل العلم أبدعت في العلوم الشرعية، خاصة الحديث الشريف، وهم من أصول ريفية، مما ينفي المزاعم السالفة ذكرها. ونحن في ميسر الحاجة في أن نعرف بهم وبإنتاجاتهم وتصنيفاتهم، إذ فيها النفع والخير الكثير.

ولا يلزم أن يشم من كلامنا رائحة للعنصرية أو الإقصائية، أو تلكم النظرة الضيقة للموضوع، بل إن الحركة العلمية في المملكة المغربية لا تكتمل معالمها ولا تلملم روافدها إلا إذا تضافرت جهود الباحثين في اخراج هذا التراث المقبور إلى واقع الساحة العلمية في مختلف ربوع البلاد، وما أحوجنا إلى ذلك. وقد شحذت همم بعض الباحثين⁵، غير أنهم على التراث، فكانت لهم محاولات جادة يُتحدى بها في التعريف بأعلام المنطقة، والتي تمثل مرجعاً من المراجع التي لا يمكن الاستغناء عنها في التأريخ للحركة العلمية الريفية.

1- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، توفيق الغلبزوري، منشورات المجلس العلمي بالحسيمة، الطبعة 01، سنة 2003م، الصفحة 4.

2- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 05.

3- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 05.

4- المصدر نفسه، الصفحة 05.

5- مثل صنيع الدكتور توفيق الغلبزوري في كتابه المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، وهو كتاب مطبوع، ضمنه ترجمات عدة لعلماء كثر من الريف الشامخ، ورصد إلى جانب ذلك الملامح الكبرى للحركة العلمية به.

والاشعاع العلمي الذي برز في هذه المنطقة، كانت بذرتة جهود الفاتحين الأوائل، إذ بذلوا وسعهم لتعليم إخوانهم من الأمازيغ أهل المغرب الذي دخلوا في دين الله أفواجا حتى عم جميع أرجاء المغرب¹، بدءا بتعليم القرآن الكريم وتحفيظه لهم، لأنه ينبوع الشريعة ومصدر العلوم الإسلامية، ثم تعليم الوحي الثاني السنة المطهرة، التي بها يفهم مراد القرآن، ويبسط مبهمه، ويشرح ما صعب فهمه منه، وقد كان التكوين الأساسي عند طلبة العلم في هذا الصقع من البلاد المغربية قائما على "التمكن من الحفظ النهائي لكتاب الله تعالى، والانكباب على تعلم القراءات، وحفظ الأذكار، واستيعاب جملة من الأحاديث النبوية، والاطلاع على ما لا بد منه من أصول التوحيد والفقه واللغة"²، والملاحظ أن الحديث الشريف قد كانت له المنزلة الفضلى والمكانة العليا عند الطلبة الريفيين، فبعد حفظ القرآن الكريم والعناية بعلومه، فإنه كانوا يعكفون على المتون الحديثية حفظا وفهما، فأشهر ماكانوا يدرسون: موطأ الإمام مالك رحمه الله عليه، والصحيحين للبخاري ومسلم رحمه الله عليهما، إذ كانت من اللبنة الأساس التي لا يستغنى عنها في التحصيل العلمي، وفي هذا المقام يذكر أبو الحسن علي بن قاسم رحمه الله وهو أحد علماء المنطقة المشتغلين بالحديث الشريف وعلومه - ستأتي ترجمته - أنه أخذ العلم عن جمهرة من أهل العلم، في فنون شتى، ومن ذلك أخذه لرواية الصحيحين بأسانيده المختلفة، وهذا مما لا يتأتى إلا لأرباب المهم العالية، كما أنه اهتم بعلوم الحديث: كمصطلحه، وغريبه، وعلم رجاله، من خلال حفظه ودراسته لبعض المتون كأللفية الإمام العراقي رحمه الله³.

وهؤلاء الطلبة المتميزون في الصنعة الحديثية، ستسند إليهم مهنة التدريس، سواء في الريف خاصة، أم في الحواضر العلمية الأخرى، وفي طليعتها فاس وتطوان وغيرها، فأبو الحسن علي بن قاسم الريفي ستكمل مسيرته العلمية بتدريس الصحيحين البخاري ومسلم، كما حكى تلميذه أحمد ميارة حين قال: "قرأت عليه بلفظي جميع صحيح البخاري من أوله إلى آخره، وهو رضي الله عنه يمسك أصله المنسوخ جله من أصل ابن سعادة"⁴، ولا يتطلع لهذه المنقبة إلا أولو النهى. على العموم، لقد ذاع صيت علماء أجلاء كانت لهم بصمة عظيمة في الحديث الشريف وعلومه، ولم يشتهر منهم، إلا النزر اليسير. وإنه لمن الإجحاف عدم التعريف بهم، وبيان ما قدموه في رفع راية هذا العلم، تدريسا، وتأليفا، وعناية بتفريعاته، خاصة في يومنا هذا، بعد أن وجدت محاولات محتشمة من بعض الباحثين الغيورين على النقطة وأهلها، الذين حاولوا ملمة ترجمات هؤلاء، وجمعه بين دفتي مصنف واحد. وهذه الورقات أفردتها في ذكر ثلة من أعلام الحديث الريفيين، وأقتصر على بضعة ترجمات، وهي - لاهالة - نقط من سيل جارف، ولا يمكن حصرها في هذا المقام.

1- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق عبد الله التركي، هجر للطباعة والنشر، الطبعة 1، سنة 1998، الجزء 9، الصفحة 185.

2- شذرات من التراث العلمي والحضاري لبطوية، من إصدارات المجلس العلمي لاقليم الحسيمة ومركز الريف، مطبعة الأمنية، الرباط سنة 2017، الصفحة 71،

3- التحفة القادرية في التعريف بشرفاء وزان والسادة الشاذلية، عبد السلام ابن الخياط، مخطوط بمؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، رقم 170.

4- فهرسة الشيخ أحمد ميارة، الصفحة 23.

محمد بن عبدالحق اليعفري البطوي

وهو أول علم نترجم له، فكنتيته: أبو عبد الله، ونسبه هو: محمد بن عبدالحق بن سليمان اليعفري، الكومي، البطوي، التلمساني، ولد سنة 526هـ وتوفي سنة 625هـ، الموافق لـ 1141م/1228م.¹

عُرف بولعه للعلوم، والجلوس مجالسها، والسعي للقي أهلها، فأخذ عن خلق كثير من أهل العلم، الورع، والزهد، في كل من فاس، ومراكش، وسبتة، وإشبيلية، من أمثال أبي علي الحسن بن الخراز، وأبي مدين شعيب بن الحسن²، أخذ القراءات عن أبي علي أيضا وغيرهم جمع غفير³، فنال من ذلك علوما شتى، حتى أصبح قاضيا، وفقهيا، مقرئا، ومتكلما، وحافظا الحديث⁴، قل نظيره في زمانه.

قال عنه محمد الحفناوي في وصف علمه وخلقه: "كان راوية، فقيها، حافظا، متكلما، متفنا في علوم جمّة، بارع الخط، جماعا للكتب الجليلة، وكان رحمه الله حسن الخلق، رائق الملبس، مطعما، وجيها ببلده وغيره عند السلاطين والأمراء"⁵، وشهادته هذه تؤكد بشهادة الحافظ الذهبي رحمه الله في حق هذا الجهد، إذ يقول عنه: "كان إماما متفنا جميل السيرة معظما في النفوس، كثير الكتب"⁶، ولأرب عندنا، في أن تزكية إمام من أئمة الجرح والتعديل أمثال الذهبي رحمه الله، لن تشوبها شائبة المداهنة، ما لم يكن المترجم له أهلا لذلك.

وحسبي مما سبق أن ينعت هذا العلم بـ "حافظ الحديث" و"الراوية" للدلالة على اهتمامه بالحديث الشريف بخاصة، حفظا وتعلما بل حتى تدريسا وتلقينا لطلبة العلم، وإليه يشير ابن الأبار: "كان حميد السيرة، مشاركا في الفقه، وعلم الكلام، معتيا بالحديث، وروايته، معظما عند الخاصة والعامة، حدّث ودرس"⁷، وكان ذلك لما نزل تلمسان وتولى القضاء فيها، وتصدر للتعليم، وإسماع الحديث⁸. ولعل من الكتب النفسية التي اعتنى بدراستها "صحيح البخاري"، وقد تؤكد هذه المسألة إذا علمنا أن للمترجم نظاما في الحديث عنه، وعد مجموع أحاديثه، ومنه هذين البيتين⁹:

جميع أحاديث الصحيح الذي روى ال	بخاري خمسة وسبعون في العدد
وسبعة آلاف تضاف وما بقي	إلى مائتين عد ذاك أولوا الجد

- 1- معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العاصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، للتأليف والترجمة والنشر - بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1400هـ، الصفحة 77.
- 2- برنامج شيوخ الرعيني، أبو الحسن الرعيني، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، سنة 1381هـ، الصفحة 169.
- 3- الإعلام بمن حل مراكش وأغمارت من الأعلام، العباس السملالي، المطبعة الملكية - الرباط، الطبعة 2، سنة 1419هـ، الجزء 4، الصفحة 184.
- 4- معجم أعلام الجزائر، الصفحة 78.
- 5- تعريف الخلف برجال السلف، لمحمد الحفناوي، طبع بمطبعة بيزر فونتانة الشرقية في الجزائر، سنة 1324هـ، الصفحة 395 و396.
- 6- معجم أعلام الجزائر، الصفحة 78.
- 7- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، تحقيق عبد السلام المراس، دار الفكر للطباعة - لبنان، سنة النشر 1415هـ، الجزء 2، الصفحة 166/الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء واللغة، عدد من الباحثين، مجلة الحكمة، الطبعة 1، 2003م، الجزء 3، الصفحة 2127.
- 8- معجم أعلام الجزائر، الصفحة 78.
- 9- تعريف الخلف برجال السلف، الصفحة 396.

إلى جانب ذلك، فاهتمامه بالحديث الشريف أيضا سبب في تواليه، خاصة في كتابه "المختار في الجمع بين التمهيد والاستدكار"¹ الذي جمع فيه بين شرحين عظيمين للموطأ للإمام ابن عبد البر رحمه الله، وهما كتابا حديث وفقه، ولليعفري كتاب آخر في علوم الحديث، الذي عون له بعنوان "غريب الموطأ"، ولا يؤلف في فن غريب الحديث إلا الضليع المتمرس الذي يستجلب درر الحديث ونفائسه، أضف إليها مصنفات أخرى في فنون شتى².

عمر بن الزهراء الورياغلي:

المحدث الفقيه أبو حفص عمر بن علي بن يوسف، الملقب بابن الزهراء الورياغلي، وقيل اسمه ميمون، فقيه من علماء المالكية، من أهل الريف المغربي³، العثماني، نسبة إلى مدشر من مداشر الريف الذي لا يزال وجوده قائما إلى يومنا هذا، يعرف 'بالعثمانيين' أو 'عثمان' ⁴.

ولا نكاد نجد شيئا عن سيرته ومولده ونشأته، إلا ما ندر، إذ لم تورد كتب الأعلام ترجمته، رغم جلالة قدره، وهذا ما دفع عبدالرحمن بن زيدون أن يتهم عشيرته ومعاصريه بتضييعها وعدم حفظها، فيقول:

"إنه أضاعه ومؤلفه قومه وعشيرته من معاصريه فمن بعدهم، وأي عالم يفخر به المغرب على المشرق أضاعوا"⁵. أخذ العلم عن فطاحلة زمانه في المغرب، كما تأثر بعلماء الأندلس الذين وفدوا البلاد وقتئذ، وهذا قصد الدكتور توفيق الغلبزوري في مناره، لما ترجم لابن الزهراء، على أنه "متشبع بروح علماء الأندلس، وبأفكارهم، وطريقتهم في البحث والتأليف، ومن المرجح أنه قد أخذ عن علماء الأندلس، سيما وقد انتقل عدد منهم في هذا العصر إلى عدوة المغرب، وكان بادس لهذا العهد مزدهرة تزخر بالعلماء والشيخوخ، ويحج إليها طلاب البادية من كل جهة،.. ومنهم عمر الذي درس بها ولازم شيخوخها"⁶ من أمثال الفقيه أبي إبراهيم إسحاق بن مطهر، والأعرج الورياغلي الغلبزوري، وغيرهم⁷.

إن الشح المطاع قد طال ترجمته، غير أن ما نجا من كتبه⁸ فيه الدلالة الجلية على علو كعبه في مختلف العلوم؛ وتمكنه من ناصية الحديث وعلومه أعظم من غيرها، ويبرز ذلك إذا علمنا أن أجل ما خطته أنامله كتاب النفيس في شرح موطأ الإمام مالك رحمه الله، والذي سماه "الممهد الكبير، الجامع لمعاني السنة والأخبار، وما تضمنه موطأ مالك من الفقه والآثار، وذكر الرواة البررة الأخيار، وكل

1- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل باشا البغداد، دار إحياء التراث العربي، الجزء 01، الصفحة 357.

2- معجم أعلام الجزائر: الصفحة 78، تعريف الخلف برجال السلف: الصفحة 396، كشف الظنون: الصفحة 404، إيضاح المكنون: 357.

3- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة 15، سنة 2002، الجزء 5، الصفحة 56.

4- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 53.

5- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 54، نقلا عن كتاب "تبيين وجوه الاختلال في مستند إعلان العدلية لثبوت رؤية الهلال" لعبدالرحمن بن زيدون، الصفحة 21.

6- المنار المنيف، الصفحة 54.

7- المصدر السابق، الصفحة 54.

8- ذكرت تصانيفه في الأعلام، لخير الدين الزركلي، الجزء 5، الصفحة 56.

ذلك على سبيل الإيجاز والاختصار¹ ويقع هذا السفر العظيم في 51 مجلدا، جمع فيه "الاستذكار" و"التمهيد" وكلاهما للحافظ ابن عبد البر رحمه الله، إضافة إلى شروح أخرى للموطأ، ولا وجود لشرح يضاهيه، لولا ضياع جله، إلا أجزاء مخطوطة، وهو كتاب حديث وفقه بامتياز.

وله كتاب آخر هو "أنوار أولي الأبواب في اختصار كتاب الاستيعاب" في تراجم أسماء صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم، وهو اختصار لكتاب الامام ابن عبد البر رحمه الله "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"²، توجد منه نسخة في المكتبة الوطنية بمطرد وهي محفوظة تحت رقم MSS/5194، وهي نسخة تامة كتبت بخطوط مختلفة، مبتورة الورقة الأولى، عدد الترجمات التي ذكرت فيها هي 3431 ترجمة، وأوراقها إجمالا 179 ورقة، مقاساتها 30×22 سم، أسطرها ما بين 18 و30 في الوجه الواحد. ولا بن الزهراء رحمة الله عليه كتاب ثالث، يعنى بموطأ الإمام مالك أيضا، من جانب دراسة روايته، وعنوان تأليف "ترتيب المسالك لرواة موطأ مالك"، ويوجد منه سفر، بمكتبة ابن يوسف بمراكش، تحت رقم 476، ناقص البداية، ومكتوبا بخط مؤلفه، الذي ذكر أنه فرغ من تأليفه يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة 703هـ، بهذا يتبين أن كتابة هذا المؤلف سابقة على الممهد³.

أحمد بن عيسى الماوسي

أبو العباس أحمد بن عيسى الماوسي البطوي، فقيه مغربي منسوب إلى بطوية الريفية، كان مزوار الموقتين، حسب التعبير القديم، بمنار جامع القرويين بفاس⁴، كان حيا سنة 843هـ، قاض، وفقه، وأصولي⁵، ومحدث، له "فتاوى" نقلها الونشريسي في المعيار المعرب⁶.

تحدث عنه أبو عبد الله الشريف المديوني التلمساني، فقال: "الفقيه القاضي العدل الموثق"⁷، ووصفه عبد الحكي الكتاني بكونه "الإمام المحدث"⁸. وأن يُجمع بين الفقه والقضاء والتوثيق من جهة، والإمامة في الحديث من جهة أخرى، هذه المناقب قلما تجتمع لعالم ما.

أحمد بن عبد الله المديني:

لم أقف على ترجمة جامعة له، سوى ما ذكرها الدكتور توفيق الغلبزوري، الذي ذكر أن المترجم له كان من المهتمين بالحديث الشريف وما يتفرع عنه من علوم، ومتصدر لتدريسه مع فنون أخرى، فيقول عنه:

- 1- سيأتي الحديث عنه في المحور الثالث، كنموذج لأهم اسهامات علماء الريف في خدمة الحديث الشريف.
- 2- ذكره المؤلف نفسه في الممهد الكبير في مواضع عدة كالسفر العاشر مثلا.

3- ورقات عن حضارة المرينيين، محمد المنوني، مطبعة النجاح الرباط، الطبعة 3/ سنة 2000، الصفحة 290

4- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 79.

5- معجم أعلام الجزائر: الصفحة 68.

6- المصدر نفسه، الصفحة 68.

7- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبد الله الملقب بابن مریم الشريف التلمساني، المطبعة الثعالبية، سنة 1326هـ، الصفحة: 51

8- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، عبد الحكي الكتاني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلام- بيروت، الطبعة الثانية، الجزء 2، الصفحة 890.

" الأستاذ فريد دهره، ووحيد عصره، العالم المدرس، المحدث، المتفنن المتواضع، الحسن الأخلاق، أحمد بن عبدالله المديني البطوئي، من تلاميذ الإمام ابن غازي المكناسي¹، فقيه، مشارك مبرز في علوم القرآن والحديث، عاش في مسقط رأسه يدرس الطلبة خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري². وهذا دال على تكوينه الذي اجتهد في تحصيله أيام شبابه بمدينة فاس، خاصة على يد شيخه ابن غازي المكناسي المتوفى 919هـ.³

أبو الحسن علي بن قاسم البطوئي

هو أبو الحسن علي بن قاسم بن عبدالعزيز البطوئي الريفي الزناتي⁴، ينتسب إلى أسرة قديمة بفاس تعد من أسر العلم المعروفة فيها، فيها، يقول عنها عبدالكبير الكتاني: " هؤلاء من قدماء فاس، وبيتهم بيت فقه وعلم"⁵، وينتسب هذا البيت إلى قرية إيرماواس من قبيلة بني توزين البطوئية⁶.

أخذ العلم عن جمهرة من أهل العلم، في فنون شتى، ومن أكثر الجلوس عنده، والأخذ منه: أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار المتوفى سنة 1012هـ، الذي أخذ عنه رواية الصحيحين بأسانيده المختلفة⁷، ومؤلفات الحافظ العراقي⁸، وغيرها تصانيف عدة، لذا لذا يعد عمده في التعلم⁹، كما تتلمذ على يد الشيخ الولي الصالح رضوان الجنوي المتوفى سنة 991هـ، ويبدو أنه استفاد منه على المستويين العلمي والصوفي، إذ كان ولوعا بالعلم في الفقه والنحو واللغة والحديث والتفسير والتصوف¹⁰. كلاهما كانا السبب في عناية أبي الحسن بالحديث الشريف وحفظ متونه كالصحيحين، ودراسة علومه، وتركيزه على تعلم أسانيد رواياتهما، هذا الأمر يعكس

1- هو محمد بن أحمد بن غازي المكناسي، فقيه مالكي، ومؤرخ، ولد وتفقّه في فاس سنة 841هـ، وتوفي فيها سنة 919هـ، له " الفهرسة المباركة" في أسماء محدثي فاس وكتابها وتسمى " التعلل برسوم الأسناد" وكتاب " إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب" وغيرها. (الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، سنة 2002م، الجزء 5، الصفحة 336)

2- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 83-84

3- من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر الهجري: عيسى بن محمد الراسي البطوئي، حسن الفكيكي، مقالة في مجلة دعوة الحق، العدد 253، محرم- صفر - ربيع 1، سنة 1406هـ/ أكتوبر-نوفمبر- دجنبر 1985م

4- زهر الآس في بيوتات أهل فاس، عبدالكبير الكتاني، تحقيق علي الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء، الطعة الأولى سنة 1422هـ، الجزء 1، الصفحة 140.

5- زهر الآس في بيوتات أهل فاس، عبدالكبير الكتاني، الجزء 1، الصفحة 140.

6- إيرماواس، ضمن معلمة المغرب، حسن الفكيكي، الجمعية المغربية للتأليف، نشر مطابع سلا، السنة 1991م، الجزء 3، الصفحة 926.

7- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، محمد حجي، سلسلة التاريخ، دار المغرب للتأليف والنشر، مطبعة فضالة، الجزء 2، الصفحة 363.

8- التحفة القادرية في التعريف بشرفاء وزان والسادة الشاذلية، عبدالسلام ابن الحياط، مخطوط بمؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، رقم 170.

9- الإعلام بمن غير من أهل القرن الحادي عشر، عبدالله بن محمد الفاسي الفهري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة 1، 2008م، الصفحة: 40

10- محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، صورة عالم من القرن 10هـ/16هـ، تنسيق وتقديم: محمد العيادي، مطبعة فضالة- المحمدية، سنة 1996م، الصفحة 45-69.

حرصه الشديد على العلم، وقوة حافظته، وولعه بالسنة المطهرة، وبهذا وصفه عبدالكبير الكتاني بأنه: "الشيخ الإمام، الفقيه العلامة، المدرس النبیه، المحدث الصوفي"¹

بعد هذه المسيرة الحافلة بتحصيل العلم، تفرغ من بعد للتدريس وهو أهل لذلك بتزكية شيوخه، فأخذ عنه خلق كثير أشهرهم أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي، أحد أعمدة الفقه بالمغرب، والمتوفى سنة 1072هـ، فقد أخذ عن أبي الحسن علومًا ومعارف عدة، قال عنه: "وعلى يده كان الفتح، فجزاه الله عنا خيرًا، وأعظم له في الأخرى أجرًا"². ومما قرأ عليه بلفظه كما ذكر صحيح الإمام البخاري والإمام مسلم، وشمائل الترمذي، وكتاب الشفاء، وألفية العراقي في علم الحديث، وهلم جرا³. وللمترجم كتب عدة ألفها⁴، والمميز في تصنيفاته إيمانه على النسخ الأصلية للكتب، وذاك صنيعه لما درس الصحيحين كما حكى تلميذه أحمد ميارة حين قال: "قرأت عليه بلفظي جميع صحيح البخاري من أوله إلى آخره، وهو رضي الله عنه يمسك أصله المنسوخ جله من أصل ابن سعادة"⁵ نفس الشأن ذكره عن صحيح الإمام مسلم.

محمد بن محمد بن عيسى البطوي نسبة التلمساني دارا:

وهو نجم من أنجم الريف المغربي وأعلامه، جمع بين العلم الزهد ودمائة الخلق، كان وليا صالحا له كرامات، فقيها، متصوفا، عالما بالحديث، عابدا، ساجدا، ملازما للمساجد، كثير الذكر لله عز وجل، وكان رحمه الله عارفا بالبخاري يقرأه للناس في الجامع الأعظم، لأنه كان حريصا على الإفادة والاستفادة ماثرا على تعلم العلم وتعليمه غير أنف من حملة عمن دونه، له مشاركة حسنة في كثير من العلوم النقلية والعقلية، توفي رحمه الله بالمدينة، ودفن بالبقيع⁶.

لحسن كنبور الورياني (1283هـ)

أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن عبدالعزيز كنبور، كما ضبط اسمه⁷، ووصفه عبدالحكي الكتاني "بالمحدث المقرئ، الورع، الزاهد، الزاهد، الخاشع، الأستاذ المعمر"⁸، يُعتبر من أعلام الريف المغربي، وممن حمل راية علمي القراءات والحديث، وهذا ما حكاه مترجموه، مترجموه، قائلين عنه "خاتمة أعلام أئمة القراءات بالمغرب، ومحدثه"⁹، كما أنه "علامة مشارك محدث أستاذ يحفظ السبع"¹⁰، وقصده وقصده بالسبع القراءات القرآنية، فضلا عن الحديث الذي كان له فيها اليد الطولى، والكلمة الأولى.

- 1- زهر الآس في بيوتات أهل فاس، عبدالكبير الكتاني الجزء 1، الصفحة 140.
- 2- فهرسة أحمد ميارة، تعليق بدر العمراني الطنجي، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2009م، الصفحة 23.
- 3- فهرسة الشيخ أحمد ميارة، الصفحة 23.
- 4- فهرس الفهارس، الجزء 1، الصفحة 224.
- 5- المصدر السابق، الصفحة 23.
- 6- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، من الصفحات 272 إلى 274.
- 7- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، سنة 1996م، الجزء 7، الصفحة 2631.
- 8- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، عبدالحكي الكتاني، الجزء 1، الصفحة 292 و293.
- 9- المصدر السابق، الجزء 1، 292.
- 10- إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، ابن سودة، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1417هـ، الجزء 1، الصفحة 234.

" وكان الهواري -تلميذه- يحدثني عن شيوخ المعقولي العلامة العابد المحدث أبي العباس أحمد بن أحمد بناني أنه كان شديد الاعتراف للمترجم بالعلم بالحديث والاطلاع فيه، وقال فيه القاضي المذكور في الترجمة التي عقدها معروفاً به: « له المعرفة التامة بالحديث حافظاً لمسائله قل من نعرفه ممن رأينا مثله عارفاً لرجاله ولوعاً به، يتكلم فيه فيجيد ويبيد ويعيد فيه، مداوماً لمطالعة كتبه حتى إنه يتكلم على الوقائع والغزوات وأسماء الصحابة والأزواج، فيتخيل السامع أنه كان موجوداً في زمنهم، وبالجملة فله مشاركة حسنة، ولكن غلب عليه علم القراءات والحديث فهو القدوة فيهما وإليه المفرج في ذلك، وكان معتنياً بضبط مايقع بيده من الكتب الحديثية ومقابلتها، وكتابة تعاليق عليها»¹.

هذه الشهادة تجلي مدى رسوخ قدم لحسن كنبور في الحديث الشريف وعلومه، وقوة حافظته في استحضار وقائع السيرة، وأسماء الرجال، بتفصيل دقيق لدرجة أن من يستمع له، يتخيل أنه حاضر معاصراً لهم. له تواليف عدة في الحديث والقراءات والفقه مثل: فهرس، وشرح على دالية ابن مبارك، وغيرها². وفي يوم الأربعاء 17 ربيع الثاني، سنة 1283هـ، توفي رحمه الله، ودفن في قبيلة الجاية³.

+ العربي بن محمد التمساني:

العربي بن محمد بن الفقيه التمساني الريفي، قاضي طنجة⁴، ولد عام تسعة وتسعين ومائتين وألف بطنجة، وتوفي ليلة الثلاثاء سادس شوال عام 1389هـ، وهو في عمر السابعة والثمانين، ودفن في نفس المدينة⁵. تلقى العلم على يد جهازة زمانه، وكان ممن درس عليه الحديث الشريف الفقيه المحدث عبدالسلام بن عمر العلوي الذي قرأ عليه صحيح الإمام البخاري بشرح القسطلاني مرتين، وقرأ الكتاب ذاته على يد أبي شعيب الدكالي، وتلقى على يد العلامة المجتهد عبدالله بن إدريس السنوني مختصر عبد الله بن أبي جرة⁶، وهو أحد المختصرات على الصحيح، إلى غير ذلك من شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم. هذا الحرص على العلم والتردد على العلماء جعل منه " عالماً عارفاً بالإجادة وحسن الإفادة"⁷. وتحدث محمد بن الفاطمي السلمي عن الأوسمة التي علقت على صدره فقال: " فقيه علامة أديب له مشاركة في النحو والأدب، والفقه، والتاريخ، والحديث، والتفسير، وله إلمام بفن الموسيقى، ومعرفة بطبوع الآلة مع حفظ موازينها وإنشاداتها"⁸.

1- فهرس الفهارس، الجزء 1، الصفحة 293.

2- معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين، لعبدالرحمن زيدان، تحقيق حسن الوزاني، منشورات وزارة الأوقاف- المغرب، الطبعة 1، سنة 2009م، الجزء 2، الصفحة 123/ وممن اقتصر على مؤلفاته في علوم القرآن والقراءات تحديداً، سعيد أعراب في كتابه " القراء والقراءات بالمغرب" الصفحة 163.

3- إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، ابن سودة، الجزء 1، الصفحة 234/ فهرس الفهارس، الجزء 1، الصفحة 293.

4- موسوعة أعلام المغرب، الجزء 9، الصفحة 3417.

5- إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، الجزء 2، الصفحة 603.

6- إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين، ابن الحاج السلمي، المطبعة الجديدة، الطبعة الأولى 1412هـ، الصفحة 465.

7- مواكب النصر وكواكب العصر، لمحمد بن عبدالصمد كنون، مطبعة سوريا، سنة 1400هـ، الصفحة 52 و 53.

8- إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين،، الصفحة 466.

من أعماله : كتب وأشعار وخطب، تقتصر على ذكر اسم واحد منها وهو : " نسج بروده من آيات الذكر الحكيم، ومعجزات الرسول الكريم، تجنبنا للآثار الضعيفة، والأخبار التي لا أصل لها من السنة المعروفة".

وصفوة القول: لقد كان لهؤلاء العلماء الفطاحلة عناية فائقة النظر بالحديث الشريف وعلومه، وما ذكر من الأعلام إنما هو غيض من فيض، والكثير منهم لم يشر إليهم، إختصاراً لا إغفالاً لهم، وإلا فإن الذين برعوا في هذا العلم من هذا القطر، وكانت لهم إسهامات وكتابات فيه، هم أجل من تحصر وريقتي هذه، ولعل في أقطار المغرب أعلاماً فطاحلة يلزم نفض غبار الإهمال عن حياتهم، والترجمة لهم، والتعريف بهم وبإنجازاتهم.

من إسهامات علماء الريف في الحديث الشريف: الممهد الكبير لابن الزهراء نموذجاً

لهؤلاء الأعلام من الريف المغربي وغيرهم إنتاجات عدة في الحديث الشريف وعلومه الجليلة أيضاً، وهي تحوي قيمة حافلة بالفوائد، زاخرة بالفرائد، وسبق أن ذكرنا منها "غريب الموطأ" و"المختار في الجمع بين التمهيد والاستذكار" لمحمد اليعفوري البطوي، و"ترتيب المسالك لرواة موطأ مالك" و"إسعاف المبطل برجال الموطأ" و"الممهد الكبير"، وغير ذلك. وهذا الأخير من أجل ما ألف في الحديث الشريف، وهو أعظم شرح للموطأ، ولكونه بهذه المنزلة ستخصص هذه الوريقات لتسليط الضياء على بعض من جوانبه بغية التعريف به.

ومضات عن الممهد الكبير وأسفاره:

لقد عنون ابن الزهراء الورياغلي رحمة الله عليه كتابه هذا في الحديث والفقه بعنوان طويل يذكرنا بعناوين كتب علماء السلف، أمثال المقدمة لابن خلدون، والتمهيد لابن عبد البر رحمة الله عليهم جميعاً، وعنوانه هو: "الممهد الكبير، الجامع لمعاني السنة والأخبار، وما تضمنه موطأ مالك من الفقه والآثار، وذكر الرواة البررة الأخيار، وكل ذلك على سبيل الإيجاز والاختصار"، وطول هذا العنوان نافع لكل قارئ، فبه تعرف أمور عدة قبل تصفحه، أو تصفح ما تبقى منه، كبيان منهجه في التأليف، وهدفه.

ويضم هذا التأليف العظيم في أصله، واحداً وخمسين جزءاً متباينة، من حيث مقاطعه وسعة مضمونه، فكل سفر يتألف من عدة أجزاء حيث صار مجموع أجزاء الكتاب مائتين وستة وتسعين جزءاً¹ في كل جزء نحو سبعين صفحة من القطع الكبير، ومجموع صفحات الكتاب نحو عشرين ألفاً وسبعمائة وعشرين²، ولعل تأليف كتاب بهذا الحجم الكبير، يستدعي جهداً عظيماً، ويتطلب صبراً وجلداً، سيما وأن المؤلف وقف عند كل حديث من أحاديث "الموطأ" وشرحه، وبسط معانيه، واستنبط فقهه، وتتبع رجال سنده، وغير ذلك مما يلحق الصنعة الحديثية، فبلاشك أنه استغرق منه ردحاً من الزمن، فيحدد بنفسه المدة التي قضاه في جمع كتابه في السفر السادس عشر منه، فيقول: "وصنفه مؤلفه في خمس سنين وسبعة أشهر"³، لكن هذه السنوات الخمس إن قورنت بكتابه فهي مدة وجيزة، تستلزم كما قال سعيد أعراب:

1- ورقات عن حضارة المرينين، الصفحة 288.

2- ورقات عن حضارة المرينين، الصفحة 288.

3- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 55.

"سعة في العلم، وقوة في الفهم، وبصر بعلم الأثر، وتبحر في مختلف العلوم والآثار"¹. وإذا تحدثنا عن بواعثه في تأليفه للممهد الكبير، فنجد أن تبجيله للنبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيمه لحديثه الشريف، وعنايته به، لما له من أهمية في فهم المراد من كلام الله عز وجل، تظل أبرز الدوافع لذلك، فضلا عن المكانة التي يجوزها موطأ الإمام مالك رحمه الله، والقيمة التي يحظاها عند المسلمين، خاصة في الغرب الإسلامي، وما يتضمنه من النكت الغريبة، و الدرر الجليلة، ذاك وغيره شحذ همته، وحفزته أكثر ليخطط بأنامله مصنفًا يجمع فيه ما تفرق عند غيره من شروح وتقييدات وتعاليق على "الموطأ"، ويجمع ذلك في قالب واحد.

وموضوعه -كما سبق- شرح لأحاديث "الموطأ" للإمام مالك رحمه الله برواية يحيى بن يحيى بن كثير الليثي، ودراسة أسانديه، كما سيأتي التفصيل في منهجه، وأصل هذا الكتاب، أنه اختصار لمؤلفين للحافظ ابن عبد البر رحمه الله "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" وكتابه "الاستدكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار"، وشروحات أخرى عليه، كشروح أبي بكر بن العربي رحمه الله على الموطأ، مع إضافات للورباغلي عليه، وبه يكون أشمل شرح للموطأ، لاستفادته من شروح من سبقه، وأكثرها استيفاء له.

وقد حوى ما تفرق عند غيره من تعليقات الفقهاء والمحدثين، أثناء معالجتهم لروايات "الموطأ"، فهو يعتبر مفخرة من مفاخرة المغرب في باب "وذخيرة الوجود، طوقت أعناق المغاربة بالمجد والفخر"²، وحق لنا أن نفاخر غيرنا به. فلا مندوحة إذن، أن يكون ذاكرة علمية، وتحفة نادرة، وشرح جامع، قل نظيرها، إلا أنه لم يحظ بالعناية التي يستحقها، مما أدى إلى ضياع جله إلا أسفاراً قليلة منه، وأكد الأستاذ محمد العابد الفاسي رحمه الله أن المتبقي منه بضعة عشر سفرًا (منها ماهو مخروم، أوناقص، أومبتور) موزعة أجزاءه على مختلف الخزائن المغربية، ويرجع أصلها جميعاً إلى النسخة المحبسة على خزانة القرويين، أخرجت قديماً ولم ترد³، ومما يلزم التأكيد عليه أيضاً أن كتاب الممهد الكبير الذي ضمته خزانة القرويين في رفوفها، كان كاملاً بجميع أسفاره، وهذا ما ذكره الفقيه المنوني رحمه الله، بقوله: "ومن الجدير بالذكر أن هذا الشرح كان كاملاً بأسفاره الإحدى والخمسين في خزانة القرويين"⁴، غير أن الضياع لحقه في العصر ذاته، سواء عن قصد أو غير قصد، وهذا ما دفع أبا عبد الله محمد بن أبي القاسم بن أبي مدين العثماني محبس الخزينة حينها أن يصرح بعدم إخراجها، وأنه غير مسؤول عن تلفه، وهذه التبرئة دونت في وثيقة التحسيس سنة 766هـ⁵، ليبقى السؤال المطروح في هذا المقام: ما مصير هذه النسخة الأصلية من الممهد الكبير؟. وتظل هذه الأجزاء المتبقية منه قابعة في خزانات عدة، متفرقة على ربوع المملكة، وقد أورد المنوني رحمه الله في كتابه "ورقات عن حاضرة المرينيين" ثمانية منها، وبعض منها لم يشر إليها، وتعدادها إجمالاً -حسب علمي- هي كالتالي:

- 1- المصدر السابق، الصفحة 55.
- 2- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 55.
- 3- المصدر نفسه، الصفحة 57.
- 4- ورقات عن حضارة المرينيين، الصفحة 288.
- 5- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 55، أورد فيها وثيقة التحسيس بنصها، وحكى فيها أن عدد أسفار الممهد التي كانت موجودة حينئذ في الخزانة هي 48 سفرًا، ينقصها ثلاثة.

- السفر الأول: إن هذا السفر يحظى من الأهمية بمكانة، إذ فيه ترد مفاتيح الكتاب وخطته، ومنهج صاحبه غالباً، والمنوني رحمه الله لم يهتد إليه، ولم يذكره في سياق حديثه عن أسفار الممهد، وتحقق ذلك فيما بعد؛ بحيث عثر على أول مجلداته ضمن مخطوطات خزانة القرويين، وهو يضم كتاب وقوت الصلاة، وباين من كتاب الطهارة، أولهما: باب العمل في الوضوء، والثاني: باب وضوء النائم إذا قام إلى الصلاة، ويلاحظ على هذا السفر أن ورقته الأولى من جنس النسخة الأصلية المكتوبة بخط مؤلفه، والمحبسة على الخزانة في القرن الثامن للهجرة¹.

- السفر الثالث: رقمه 2501، ويوجد بالخزانة الناصرية بتمكروت في سوس، مكتوب بخط مغربي، أوله باب مسح الحصباء في الصلاة²، يصفه المنوني رحمه الله في موطن آخر بأنه "من حسن الحظ أن مخطوط الخزانة الناصرية، يعتبر جديداً بالنسبة للمعروف من الكتاب، حيث كان هو السفر الثالث من "الممهد الكبير"، ابتداء من باب مسح الحصباء في الصلاة، إلى أثناء كتاب الجنائز. خطه مغربي شبيه بالأندلسي، خال من اسم الكتاب والمؤلف"³.

- السفر السابع: يوجد في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 54 ج، وهو مبتور في أوله، يقرب عدد صفحاته حوالي المائتين صفحة.

- السفر العاشر: موجود في الخزانة نفسها، ويتشارك في الرقم مع السفر السابع 54 ج، مكتوب بخط صاحبه، وصفحاته 100.
- السفر السادس عشر: يوجد في الخزانة العامة أيضاً، تحت رقم 16 ج، والورقة الأولى منه كائنة بمكتبة الجامع الكبير بمكناس، وفيها يقول ابن الزهراء رحمه الله: "وهذا الديوان هو واحد وخمسون سفراً، صنفه عمر بن علي في خمس سنين وسبعة أشهر"⁴.
- السفر الرابع والعشرون: مكتوب بخط المؤلف، وموجود في الخزانة الملكية بالرباط، تحت رقم 6147.
- السفر السابع والثلاثون: مبتور آخره، يوجد بمكتبة ابن يوسف بمراكش، تحت رقم 473، وفي الخزانة عينها قطعة أخرى مبتورة في الأخير، أولها باب ماجاء في نزاع المعاليق، تحت رقم 493، وقطعة ثالثة منه بالخزانة الحمزية العياشية، بإقليم الرشادية، مبتورة من البداية والنهاية، تقع تحت مجموع برقم: 507.

- السفر الواحد والأربعون: من مضمنات خزانة القرويين بفاس، مكتوب بخطه أيضاً، تحت رقم 178/40، وعدد ورقاته تربو عن 160 ورقة، بمعدل 27 سطراً، تأليفه يرجع إلى سنة 709 هـ، ويبتدئ بكتاب الرجم⁵.
- السفر الرابع والأربعون: موجود في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 54 ج.

- السفر الخمسون: يوجد في خزانة القرويين، برقم 178/40، مكتوب بخط مغربي، يقع في 144 ورقة، بمعدل 27 سطراً في كل منها 22-26 سم، ويبتدئ بباب ماجاء في التقى، وقد فرغ من تأليفه في محرم عام 710 هـ¹.

1 - ابن الزهراء عمر الورياغلي.. ملامح من سيرة عالم ريفي، فريد أمعششو، مقالة ضمن مجلة الذاكرة، العدد الأول، 2016م، الصفحة 151.

2- دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت، محمد المنوني، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب، سنة 1985م، الصفحة 161.

3- حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار، محمد المنوني، مجلة دعوة الحق، العدد 155، سنة 1973م.

4- ورقات عن حضارة المرينيين، الصفحة 289.

5- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (الفقه والأصول)، الناشر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، الأردن، طبعة 2003، الجزء 10، الصفحة 342.

هذه هي الأجزاء الموجودة في بطون الخرائن المغربية- حسب علمي- والبقية فقدت، ولم يتوصل إليها بعد، والأمل قائم أن تجمع كل أسفاره لتكتمل معالم هذه الدرة العلمية النادرة، لاسيما بعد أن انكب بعض الباحثين² على تحقيق هذه الأجزاء منه، والتنقيب عن المفقودة

وإذا سقنا الكلام عن مصادر ابن الزهراء في "الممهد الكبير" باعتباره كتاب فقه وحديث، ومن أوفى شروحات "الموطأ" لاستفادته مما سبق، فهي -بلا ريب- مصادر كثيرة استند عليها في بناء هذا الصرح العلمي العظيم، فإننا سنجد أن المميز فيها أنها متنوعة من ضروب علوم مختلفة، دل الأمر على نبوغ علم صاحبه، وسعة اطلاعه، وتبحره في العلوم كلها. وعموماً يمكن تقسيمها على النحو الآتي:

-شروحات الموطأ: ركز على "التمهيد" و"الاستذكار" وهما للحافظ ابن عبد البر رحمه الله، و"المنتقى" لأبي الوليد الباجي رحمه الله، و"ترتيب المسالك في شرح موطأ الإمام مالك" و"القبس في شرح موطأ مالك ابن أنس" وكلاهما لأبي بكر بن العربي المعافري، وهؤلاء من سادة العلم في الغرب الإسلامي ومطولاتهم هذه من أنفس ما ألف شرحاً للموطأ، ومن المعلوم أنها تعتبر موسوعات شاملة في الفقه والحديث.

- كتب التفسير: وفي طليعتها "أحكام القرآن" لابن العربي، وغيرها، لمعرفة مدلول الآيات القرآنية وتأويلاتها، مما قدر يذكر في ثانيا الأحاديث النبوية المذكورة في أبواب الموطأ.

-المختصرات الفقهية: هي كتاب "الكافي في فقه أهل المدينة المالكي" لابن عبد البر رحمه الله، و"المعونة على مذهب عالم المدينة" للقاضي عبد الوهاب رحمه الله، وكتاب "الجواهر" ولعل ابن الزهراء رحمه الله يقصد كتاب جلال الدين بن شاس رحمه الله الموسوم باسم "عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة"، و"النكت" ولعله يشير إلى "النكت والفروق لمسائل المدونة والمختلطة" لعبد الحق الصقلي رحمه الله المتوفى 466هـ، وكلها من المختصرات الفقهية المهمة، ورغم ذلك فهي غنية بالفوائد، جامعة لاستنباطات شتى لفقهيات أحاديث الموطأ.

- كتب الخلاف الفقهية: أضف إلى ذلك فابن الزهراء يعتمد على كتب الابجري رحمه الله شيخ المالكية في العراق وقتئذ، ومن كتبه التي ألفها "الأصول" و"إجماع أهل المدينة"، ولعل إدراجه لكتب مالكية العراق وغيرهم، إنما هو لمعالجة الخلاف الفقهي داخل المذهب الواحد، وجمع الآراء والترجيح بينها، خاصة إذا علمنا أن الابجري رحمه الله ألف كتاب في الرد على الإمام المزني في بعض اجتهدات الفقهية، وعنوانه "الرد على المزني"، وأحياناً يورد حتى الخلاف العالي بين المذاهب الفقهية كلها.

- كتب غريب الحديث: وهي ما يؤلف لبيان معاني ألفاظ الحديث، التي تتسم بالغرابة والغموض، فغريب الحديث علم قائم بذاته، مستو على سوقه، عليه مؤلفات عدة. ولأن "الممهد الكبير" شرح للأحاديث، وبيان غريب كلمه، فقد اتكأ ابن الزهراء رحمه الله على بعض ما ألف في هذا العلم،

1- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، الجزء 10، الصفحة 342.

2- مثال على ذلك: كتاب "المدخل إلى كتاب الممهد الكبير" لابن الزهراء الورياعلي" وهي في أصلها رسالة قدمت لنيل درجة الدكتوراه في إحدى الجامعات المغربية، ومما بلغني أنها قيد الطباعة.

مثل "غريب الحديث" لأبي عبيد رحمه الله، وهذا من أشهر ما ألف في هذا الفن.

- **كتب الأعلام والتراجم:** وتعنى بمعرفة الرواة ومنزلتهم، وترجماتهم، وأقوال أهل العلم في حقهم جرحاً وتعديلاً، ويصطلح عليه بعلم الرجال عند المحدثين. فما تعلق بالصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من رواة الأخبار رجالاً كانوا أم نساء، فقد استلهم الوريثي رحمه الله من كتب عدة أولها:

"الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البر رحمه الله، باعتباره من الكتب المعتمدة في التراجم، ومن أوائل ما صنف في العناية بتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، ثم يليه "المنتخب من ذيل المذيل" لأبي جعفر الطبري رحمه الله، و"مسند الموطأ" لأبي القاسم الجوهري رحمه الله، و"التقصي لما في الموطأ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم" لابن عبد البر رحمه الله وغيرها.

- **كتب اللغة:** من معاجم وقواميس، فاقصر على "فقه اللغة وأسرار العربية" لأبي منصور الثعالبي رحمه الله، ولم يذكر غيرها. وما سلف ذكره أشار إليه ابن الزهراء رحمه الله في سياق حديثه عما اعتمد عليه في التأليف قائلا: "« واقتطعت هذا الديوان من ثمانية دواوين: من التمهيد والاستدكار، والكافي، والاهجري، والمنتقى، وترتيب المسالك، والمعونة، والجواهر، وفيه من القبس، وأحكام القرآن، والنكت، هذا كله في الحديث و الفقه وما يتعلق به، وأما تاريخ الصحابة ومن بعدهم من رواة الاخبار من الرجال والنساء، وذكر أعمارهم وكناهم، ومواليدهم ونسبهم، فاقطعت ذكرهم من الاستيعاب، وذيل المذيل، والجوهري، والتقصي، وغيرهم. وأما اللغة فمن كتاب شرح الحديث لأبي عبيد، ومن كتاب فقه اللغة، وشرح العربية لأبي منصور الثعالبي، فهذه الكتب هي التي مهدت وعليها خاصة اعتمدت، ومعاني ما أخذت منها قريت، والله المرجو لما أملت، من عونه وتوفيقه فهو المنعم بذلك لا شريك له، وبه اعتصمت وهو حسبي ونعم الوكيل»".¹

منهجه في الممهّد:

تحدث محمد المنوي رحمه الله عن منهج ابن الزهراء الوريثي في ممهده، وعد الخطوات التي يعتمد عليها بشيء من الاختصار، "وطريقته في الشرح أن يُثبت في البداية نص الحديث، ليتبعه بتقديم تراجم وجيزة لرواته، ثم يذكر طرق الحديث ويسمي الذين رووه من طريق الموطأ، وفي المرحلة الرابعة يأخذ في شرح الحديث شرحاً بسيطاً، ويعقب بما جاء في ذلك من الآثار عن الصحابة والتابعين، وبعد هذا يتتبع الكلمات اللغوية الواردة في الحديث ليشرحها، وفي بعض الأحيان يعلق عليها بمقارنات أدبية، وأخيراً يصل إلى فقه الحديث وما يُستنبط منه، ويتوسع في عرض الخلاف العالي ومذاهب الفقهاء وأئمة الاجتهاد".²

وفي السياق عينه، يورد محمد بن عبدالعزيز الدباغ في كتابه "من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني" ملاح منهجه في التأليف³، معتمداً في ذلك على نص استله من ديباجة السفر الأول، يذكر فيه الوريثي دوافع تأليفه للممهّد، ومحتواه ومنهجه، وخطوات تعامله مع أحاديث الموطأ، فيقول:

1- نقلا عن المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، الصفحة 58.

2-ورقات عن حضارة المرينيين، المنوي، الصفحة 288.

3- من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، محمد بن عبدالعزيز الدباغ، وهو محافظ خزانة القرويين بفاس، توزيع مكتبة الامة، الدار البيضاء، الصفحة: 235-236.

"«فاحتاج من له عناية بالعلم أن يُطالع هذه الكتب وما فيها من معاني السنن ووجوهها، واتساع مذاهب العلماء فيها، وامتداد الشرح بذلك... فألهمني الذي له الخلق والأمر، وقوى عزمي على أن أجمع كتاباً ممهّداً واعياً على أبواب الموطأ من الصحابة والتابعين، وأصل بذلك ما في الموطأ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، مسنده، ومتصله، وبلاغه، ومنقطعه، إذ كل ذلك عند مالك رحمه الله وأصحابه ومن سلك سبيلهم حجة توجب العمل، ويظهر بها من يلجأ إليها من التنازع والاختلاف في رد الفروع إليها، قياساً عليها، واستنباطاً منها، لا يختلف المالكيون في ذلك، وعليه كان السلف في قبول مراسيل الثقات لتكتمل الفائدة باستيعاب ما في الموطأ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصل ذلك بشرح جميع ما في الموطأ من حديث أقاويل الصحابة والتابعين، وما لمالك فيه من قوله الذي بنى عليه مذهبه، واختاره من أقاويل سلف أهل بلده الذي هم الحجة على من خالفهم، وأصل ذلك بمسائل من الفقه الذي يتعلق بالباب، وأقتصر في هذا الكتاب من الحجة والشاهد على فقرٍ دالة، وعيون منبهة، ونكت كافية على سبيل الإيجاز والاختصار ليكون أقرب إلى حفظ الحافظ، وفهم الطالع. وأتيت فيه بما لا يسع جهله لمن أحب أن يسم بالعلم نفسه»"¹.

فقد أحال في هذا إلى جملة من بواعث التأليف، وشيء مما حواه مؤلفه، ومنهجه في معالجة الحديث، وبيان نوعه، ودراسة سنده؛ أمتصل أم منقطع، أم معلق، أم مرسل، أم من قبيل البلاغات. وشرح متنه، واستنباط أحكامه، والترجيح بينها، وتعزيز ذلك بأقوال الصحابة والتابعين وأقوال مالك رحمه الله وأصحابه من بعده، كما أنه اتبع نفس الترتيب الذي سلكه في الموطأ، إلا نادراً، فيخالفه في ترتيب الأبواب الفقهية لأنه الأنسب بالنسبة له.

والجمع بين قولي محمد المنوني ومحمد الدباغ رحمة الله عليهما، وبالإطلاع على النص السابق المأخوذ من السبفر الأول، وتأمل عنوان الممهد الكبير، يُمكننا كل ذلك من صياغة السمات العامة لمنهج ابن الزهراء رحمة الله عليه، والتي نذكرها كآلاتي:

– اعتمد ابن الزهراء الوريث علي رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي المتوفى سنة 234هـ.

– يعتمد نفس ترتيب الأبواب الفقهية الموجودة في الموطأ، إلا في حالات قلة يُقدم فيها بعض الأبواب أو يؤخرها لأنها الأنسب حسب رأيه.

– يذكر كل حديث من الأحاديث المذكورة تحت الأبواب على حدة بالسند، ثم يترجم لكل راوي له بترجمة موجزة.

– يدرس أسانيد الأحاديث، سواء أكانت متصلة، أم منقطعة، أم بلاغات، وطرق تحمله، ويبين وزنه عند المحدثين.

– يعقب بذكر ما في الموطأ من أقوال الصحابة الموقوفة، وأقوال التابعين المقطوعة، وآراء الإمام مالك رحمه الله عليهم جميعاً في المسألة، ويشرح مقتضى كلامهم وفق سياقه.

– يشرح متن الحديث لغوياً شرحاً بسيطاً، ويفسر غريبه، ويعلق عليها بمقارنات أدبية، والشواهد الشعرية، ولما يوضح شيئاً يُدرج العبارة التالية للدلالة أنه قوله:

"قال عمر بن علي".

1- من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، الصفحة: 234-235.

- يستنبط فقه الحديث، بشيء من التفصيل أحيانا، ويتطرق في تارات أخرى، للخلاف العالي بين الفقهاء وأرباب الاجتهاد.
- سلك منهج الاختصار والإيجاز في التفصيل والتأصيل، لأن الورياغلي رحمه الله غرضه أن يسهل على القارئ حفظ ما ذكره في كتابه، ثم لأنه اشترط على نفسه ذلك في عنوانه أيضا، فماذا لو اعتمد على التفصيل في ما خطته أنامله في الممهد، لكان أضعاف ما يُحكى عنه.

خاتمة:

لقد كانت المرامي من صولتي هذه؛ أن نجلي مدى عناية علماء الريف الشرقي بالحديث الشريف وما يرتبط به من علوم، فحاولت أن أسوق شذرات لثلة من أعلام الحديث في هذا القطر، و مدى حضور هذا العلم بين طلبته، لأسلط الضوء على معلمة وذخيرة نفيسة مما جادت به قرائح علماء المنقطة وهو الممهد الكبير لابن الزهراء الورياغلي رحمه الله، باعتبار أعظم ما ألف شرحا للموطأ. هذه المحاولة قد يشوبها التقصير من جوانب عدة، ولا ندعي شموليتها للموضوع، والله نسأل التوفيق والسداد والهداية والرشاد.

ثبت المصادر والمراجع

- ابن الزهراء عمر الورياغلي.. ملامح من سيرة عالم ريفي، فريد أمعششو، مقالة ضمن مجلة الذاكرة، العدد الأول، سنة 2016م.
- إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، ابن سودة، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1417هـ.
- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة 15، سنة 2002.
- إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين، ابن الحاج السلمي، المطبعة الجديدة، الطبعة الأولى 1412هـ.
- الإعلام بمن حل مراكز وأغمارت من الأعلام، العباس السملالي، المطبعة الملكية- الرباط، الطبعة الثانية، سنة 1419هـ.
- الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر، عبدالله بن محمد الفاسي الفهري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل باشا البغداد، دار إحياء التراث العربي.
- إيرامواس، ضمن معلمة المغرب، حسن الفكيكي، الجمعية المغربية للتأليف، نشر مطابع سلا، السنة 1991م.
- برنامج شيوخ الرعي، أبو الحسن الرعي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، سنة 1381هـ.
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبدالله الملقب بابن مریم الشريف التلمساني، المطبعة الثعالبية، سنة 1326هـ.
- تعريف الخلف برجال السلف، لمحمد الحفناوي، طبع بمطبعة بيبير فونتانة الشرقية في الجزائر، سنة 1324هـ.
- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، تحقيق عبدالسلام المراس، دار الفكر للطباعة- لبنان، سنة النشر 1415هـ.
- التحفة القادرية في التعريف بشرفاء وزان والسادة الشاذلية، عبدالسلام ابن الخياط، مخطوط بمؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، رقم 170.
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، محمد حجي، سلسلة التاريخ، دار المغرب للتأليف والنشر، مطبعة فضالة.
- زهر الآس في بيوتات أهل فاس، عبدالكبير الكتاني، تحقيق علي الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، الطعة الأولى سنة 1422هـ.

- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (الفقه والأصول)، الناشر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، الأردن، طبعة 2003،
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیحات والمسلسلات، عبدالحی الكتانی، تحقیق إحسان عباس، دار الغرب الإسلام- بیروت، الطبعة الثانية.
- فهرسة أحمد ميارة، تعليق بدر العمراني الطنجي، دار ابن حزم- بیروت، الطبعة الأولى، سنة 2009م.
- من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر الهجري: عيسى بن محمد الراسي البطوئي، حسن الفكيكي، مقالة في مجلة دعوة الحق، العدد 253، محرم- صفر - ربيع 1، سنة 1406هـ/ أكتوبر-نوفمبر- دجنبر 1985.
- معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، للتأليف والترجمة والنشر- بیروت، الطبعة الثانية، سنة 1400هـ .
- الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء واللغة، جمع عدد من الباحثين، مجلة الحكمة، الطبعة الأولى، سنة 2003م.
- المنار المنيف في التعريف بعلماء الريف، توفيق الغلبزوري، منشورات المجلس العلمي بالحسيمة، الطبعة 01، سنة 2003م.
- محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، صورة عالم من القرن 10هـ/16هـ، تنسيق وتقديم: محمد العيادي، مطبعة فضالة- المحمدية، سنة 1996م.
- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، سنة 1996م.
- معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين، لعبد الرحمن زيدان، تحقيق حسن الوزاني، منشورات وزارة الأوقاف- المغرب، الطبعة 1، سنة 2009م.
- مواكب النصر وكواكب العصر، لمحمد بن عبد الصمد كنون، مطبعة سوريا، الطبعة 1400هـ.
- دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت، محمد المنوني، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب، سنة 1985م.
- من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، محمد بن عبدالعزيز الدباغ، وهو محافظ خزانة القرويين بفاس، توزيع مكتبة الامة، الدار البيضاء-المغرب.
- ورقات عن حضارة المرينيين، محمد المنوني، مطبعة النجاح الرباط، الطبعة 3/سنة 2000.